

المدارس الكبرى في فلسفة التاريخ

✉ يوسف مقارمة . جامعة باتنة 1 "الحاج لخضر"

mkayoucef@gmail.com

ملخص البحث:

تعتبر فلسفة التاريخ ذلك العلم الذي يهتم بدراسة التاريخ وتحليله ووضع قواعد له، لفهم أفضل لتاريخ الانسان والظواهر الاجتماعية المرافقة له، وقد كانت محور اهتمام الكثير من الباحثين منذ مطلع عصر الأنوار، ولذلك فقد جاءت تفسيرات معظم الباحثين نابعة عن ميولاتهم الفكرية والعقدية.

الكلمات المفتاحية: فلسفة التاريخ، الوجودية، المادية، اللاهوتية

Abstract :

The philosophy of history is that science, which is interested in studying history, analyzing and establishing rules for it, to better understand the history of man and the social phenomena accompanying it, has been the focus of attention of many researchers since the beginning of the age of lights, Therefore, the interpretations of most researchers stemmed from their intellectual and streptococcal tendencies

Key words : Philosophy of History, Existentialism, Materialism, Theological.

مقدمة

إن دراسة حركة التاريخ البشري تنطوي على أهمية بالغة لما تحمله من فوائد جليلة ومعطيات هامة، بالنسبة للأمم والشعوب، ولهذا حظيت مسألة البحث في التاريخ باهتمام الكثير من الباحثين منذ القدم، وقد لعب القلق الروحي الذي يدور حول معنى المصير الإنساني، والنواميس التي تتحكم في سيره، وكذا المصير الذي ينتظره منطلق البحث عند الكثير من استهواهم البحث في هذا المجال، ولذلك فقد تعددت التفسيرات والرؤى التي أفرزها هذا الميدان من البحث.

إن تفسير حركة التاريخ تنطوي على الكثير من الإشكاليات التي تحتاج الوقوف عندها مليا، فالحوادث التاريخية التي يجابهها الانسان متشابهة ومتشابهة، غير أن الأسباب المحركة لتلك الأحداث تختلف من منطقة إلى أخرى، والطرق المؤدية لفهم تلك الحوادث والاجابة عن الإشكالات التي تخلفها متشعبة هي الأخرى، ولذا تحاول هذه الورقة جمع ركام زوايا تلك الرؤى وتصنيفها، من خلال تتبع الجذور التاريخية لظهور المدارس الكبرى لفلسفة التاريخ، مع بيان أهم المبادئ التي تأسست عليها كل مدرسة، وكذا استعراض أهم الاختلافات بينها، وذلك من خلال تتبع مفهوم هذا العلم ولماذا ظهرت الحاجة إليها؟

أولا: مدخل تاريخي مفاهيمي

سنحاول من خلال هذا المدخل التعرض لحدود هذا العلم تفكيكا وجمعا، واستعراض أهم التعاريف التي سلّطت الضوء على هذا العلم، والحاجة التي أدّت إلى ظهوره.

1: في مفهوم التاريخ

❖ لغة: من خلال تتبع التعاريف اللغوية لكلمة تاريخ، نجد أن تعريف الوقت هو المعنى الغالب لدى علماء اللغة، أي تحديد زمن الأحداث وأوقات حدوثها¹.

وقد انعكس تعدد المصادر اللغوية للمادة تاريخ على استقرار مفهومه، فقد اختلف المؤرخون والعلماء في تحديد الجذر اللغوي... ففي العربية قال ابن منظور (1232-1311م): أرخ، التأريخ، تعريف بالوقت، والتورخ مثله². على النقيض من ذلك يعتقد قسطنطين زريق (1909-2000م) بعدم أصالة مصطلح التاريخ في العربية، ويرى أنه انتقل من الفكر الغربي³.

وهناك على صفيح ثالث من يرى أن لفظ التاريخ مشتق من اللغة العبرية يرخ التي تعني القمر، أو رخ التي تعني الشهر⁴. أما في اللغات الأوروبية فإن "كلمة التاريخ History مشتقة من الكلمة الإغريقية Historia وتعني التعلم، ذلك النوع من فن الكتابة الذي مارسه هيرودوت (425-480 ق.م) والتي كانت تعني

¹ - ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت، ص4.

² - المصدر نفسه، ص3.

³ - قسطنطين زريق، نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، دت، ص15.

⁴ - فرانز روثنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة، صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، دط، 1963، ص21.

سردا معيناً لمجموعة من الظواهر حسب أرسطوطاليس وتعني أيضاً الرؤية والمشاهدة أو الاستقصاء بعد المعرفة"⁵. فالتاريخ عند القدماء لم يكن يعدو سرد الأحداث والظواهر كما تراها العين، أو بما هو حسيّ، ثم تطورت المعرفة التاريخية بعد ذلك حتى أصبحت "لفظة التاريخ تطلق تارة على الماضي البشري ذاته وتارة على الجهد المبذول لمعرفة الماضي ورواية أخباره، أو العلم المعني بهذا الموضوع، فنحن نرى هذا اللبس في اللغات الأجنبية الحية Histoire الفرنسية، History الانجليزية وgeschichte الألمانية تستعمل المعنيين على السواء"⁶.

وهنا ارتبط موضوع التاريخ بعلم التاريخ، حيث يذكر هورس (1896-1963م Hours) أن "لكلمة تاريخ في الفرنسية معنيان يصعب التمييز بينهما، عادة معناها مجمل الحوادث الملحوظة التي تجلت فيها حياة البشرية ومن جهة أخرى يعني معرفتنا إياها"⁷.

وقد حاول بعض الباحثين الغربيين التمييز بين المصطلحين، غير أن اللبس بقي قائماً بين التاريخ بمعنى الماضي والتاريخ بمعنى العلم، فأطلق بعض الفرنسيين Histoire على الماضي وhistoire على العلم؛ أي الفكر التاريخي والمعرفة التاريخية، محاولين بذلك الفصل بين ما هو تاريخي وما هو اسطوري، فيما احتفظ الألمان بـ Geschichte للمعنى

⁵ - محسن محمد حسين، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، مطبعة موكرياني أربيل، العراق، دط، 2012، ص25، 24.

⁶ - قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر، لبنان، ط1، 2012، ص9.

⁷ - محسن محمد حسين، مرجع سابق، ص25.

الأول و Histoire للمعنى الثاني ولكن العادة ظلت غالبية، ولا يزال هذا اللبس قائماً⁸.

❖ اصطلاحاً:

يعرّف التاريخ عموماً على أنه العلم الذي يدرس كل الوقائع والأحداث التي كوّنت وشكّلت مع بعضها البعض ماضي الإنسانية، ومع تواصل الثقافات في عالم اليوم، لم تبق كلمة التاريخ محصورة في معناها اللغوي الأصلي، بل أصبحت تحمل في أغلب اللغات ومن ضمنها العربية معاني متعددة، ناتجة عن تساؤلات منهجية ومعرفية وفلسفية مختلفة.... "فكلمة التاريخ تحمل في كل اللغات العصرية معنيين: تعني سلسلة الوقائع الماضية، وتعني في نفس الوقت الكيفية التي تسرد فيها تلك الوقائع، ومن المحتمل بل من المؤكد أن الصعوبات التي تواجه المفكرين عندما يحاولون تحليل مغزى التاريخ، تنحدر كلها من هذا الازدواج في المعنى"⁹.

وقد عرّف القدماء التاريخ كابن خلدون (1332-1406م) مثلاً أنه "من الفنون التي تتناولها الأمم والأجيال.... إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق"¹⁰.

⁸ - قاسم يزبك، مرجع سابق، ص 9.

⁹ - عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة، لبنان، دط، 1973، ص 9.

¹⁰ - عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الكتب الثقافية،

لبنان، ط2، 1996، م1، ص7،8.

فابن خلدون لم يكتف بوضع حد للتاريخ بل حدّد له خصائص ظاهرة وباطنة، فهو بذلك ينقله من حالة الفن إلى حالة العلم، فابن خلدون نظر إلى التاريخ نظرة عالم الاجتماع، فقام بربط الكلي مع الجزئي فتشكل عنده علم التاريخ.

من جهة فقد عرّف السّخاوي (1428-1497م) التاريخ "بأنه التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال... والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت، بل عمّا كان في العالم، أما موضوعه فالإنسان والزمان ومسائله وأحوالهما المفضلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان"¹¹.

ومع ظهور مصطلح مجتمع في عالم الفكر، تغيّر مفهوم التاريخ حيث لم يعد التاريخ هو سرد أخبار البلاطات والمجالس الدولية، بل أصبح يتناول المجتمع في كليته، فمع مالك بن نبي (1905-1973م) أصبح التاريخ هو البحث في شروط ميلاد المجتمعات، فالتاريخ هو تتبع شبكة العلاقات الاجتماعية من حيث تماسكها وهشاشتها بحسب ما يحمله المجتمع من رصيد القيم الأخلاقية.

أمّا علي شريعتي فقد أشار بدوره إلى تعدد معاني التاريخ بقوله: "يوجد تناقض لفظي في موضوع التاريخ كما هو الملاحظ في كل اللغات الفارسية والعربية على حد سواء.... مفهومان مختلفان عن بعضهما يستخدمان للدلالة على كلمة واحدة.... أما في التاريخ فالمفهومان

¹¹ - محمد بن عبد الرحمن شمس الدين السخاوي، الإعلام بالتوبيخ لمنذم أهل التاريخ، ترجمة، صالح أحمد العبي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط1، 1986، ص18، 19.

(موضوع التاريخ وعلم التاريخ) اشتركا بلفظة واحدة وهي التاريخ لبيان مدلولاتهما¹².

وعليه فعلم التاريخ هو "العلم الذي يقوم بدراسة أحداث الماضي البشري وآثاره، دراسة علمية تقوم على البحث والتثبت والتحقق والملاحظة والمقارنة والتجربة والاستدلال والاستقراء، وذلك لفهم الوقائع التاريخية في إطار الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، التي أحاطت بها وشاركت في تكوينها"¹³.

أو هو ذلك "الفرع من المعرفة الإنسانية الذي يستهدف جمع المعلومات عن الماضي وتحقيقها وتسجيلها وتفسيرها، فهو يسجل أحداث الماضي في تسلسلها وتعاقيها، لكن لا يقف عند تسجيل هذه الأحداث، وإنما يحاول عن طريق إبراز الترابط بين هذه الأحداث وتوضيح علاقة السببية بينها، أن يفسر التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة، وأن يبين كيف حدث هذا التطور ولماذا حدث"¹⁴.

2: في مفهوم الفلسفة

الفلسفة [Philosophia] لفظ مشتق من اليونانية ومعناه محبة الحكمة¹⁵.

¹² - علي شريعتي، الإنسان والتاريخ، ترجمة، خليل علي، دار الأمير، لبنان، ط2، 2007، ص14.

¹³ - ابراهيم أبو شوكة، علم التاريخ وإشكالات المنهجية ومشروعات الأسلمة، مجلة أسلمة

المعرفة، عدد 24/19.07.2008، ص47.

¹⁴ - رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ، دار روتانترنت للطباعة، مصر، دط، 2000، ص7.

¹⁵ - - جبرار جهامي، موسوعة الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، دط، 1998،

وقد أطلق قديما على دراسة المبادئ الأولى وتفسير المعرفة عقليا، فتشمل عند أرسطو الفلسفة النظرية والعلمية، وقصرها الرواقيون على المنطق والأخلاق والطبيعة¹⁶، وقد ظلت الفلسفة منذ القديم حتى حدود القرن التاسع عشر متضمنة لمختلف العلوم، بيد أن غاية الفلسفة تختلف عن غاية العلم، باعتبار أنها لم ترض منذ نشأتها بتعليل الظواهر الطبيعية بظواهر طبيعية أخرى، بل كانت تسعى دائما إلى الارتقاء فوق كل تجربة صعودا نحو العلل الأولى لجميع الظواهر الطبيعية¹⁷.

إن هذا السعي إلى المطلق الذي لا يكون الفوز به شيء آخر غير العقل وقواه الخاصة، هو ما أطلق عليه أفلاطون اسم الجدل (الديالكتيك)، وهو ما سماه أرسطو بالفلسفة الأولى، وما يسمى فيما بعد بالميتافيزيقا، فالفلسفة بهذا المعنى هي الأساس التي تقوم عليه جميع العلوم والعنصر الموحد لها جميعا.

وقد قسّم القدماء الفلسفة الى قسمين: نظري وعملي، فأما النظري فينقسم إلى العلم الإلهي وهو العلم الأعلى والعلم الرياضي هو العلم الأوسط، والعلم الطبيعي هو العلم الأسفل، وأما العملي فينقسم إلى ثلاثة أقسام أيضا: أولها سياسة الرجل نفسه وسعي علم الأخلاق،

¹⁶ مجموعة ناشرون، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، دط،

1983، ص138.

¹⁷ - جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس،

دط، 2004، ص168

والثاني سياسة الرج لأهله وسَمّي بتدبير المنزل، والثالث سياسة المدينة والأمة والملك¹⁸.

أما في العصور الحديثة فإن لفظ الفلسفة يطلق على دراسة المبادئ الأولى التي تفسر المعرفة تفسيرا عقليا كفلسفة التاريخ وفلسفة العلوم.... أو تطلق على كل معرفة تامة التوحيد بخلاف المعرفة العلمية المشتملة على توحيد غير تام¹⁹.

من جهة أخرى فقد حاول بعض الفلاسفة المسلمين وضع تعريف للفلسفة كابن سينا (980-1037م) مثلا، الذي جعل لها غرضا حين قال: "الغرض من الفلسفة هو الوقوف على حقائق الأشياء كلها سواء أكان وجودها باختيارنا أم خارجا عن إرادتنا، وهي نظرية وعلمية" حيث وضع تحت النظرية الطبيعيات والرياضيات والإلهيات، وتحت العملية تدبير المدينة وتدبير المنزل والأخلاق²⁰. أو "هي الوقوف على حقائق الأشياء كلها على قدر ما يمكن الإنسان أن يقف عليه"²¹، فالفلسفة بالنسبة إليه طريق للوصول إلى جوهر الحقيقة، أو هي آلية من آليات المعرفة.

وإلى هذا الرأي ذهب الكندي (805-873م) الذي يرى أن أعلى الصناعات الإنسانية منزلة وأشرقها مرتبة، صناعة الفلسفة التي حدّها

¹⁸ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني- مكتبة المدرسة، دط، 1982، ج 2،

ص160.

¹⁹ - المرجع نفسه، ص170.

²⁰ - المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص138.

²¹ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص160.

علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان، لأن غرض الفيلسوف في علمه إصابة الحق وفي عمله العمل بالحق²².

أما في العصر الحديث فقد عرّفها جاسم سلطان بقوله: "هي التأمل التجريدي للظواهر البشرية ومحاولة تفسيرها، أي النظر وتجريد الظواهر من ملاسباتها وتحويلها إلى مفاهيم بحيث يمكن استخدامها في سياقات أخرى"²³، فلم يعد دور الفلسفة الوصول إلى جوهر الحقيقة فحسب، بل تعدته لوضح حد الأشياء وصياغة المفاهيم.

3: في مفهوم فلسفة التاريخ

يعتبر عبد الرحمن ابن خلدون أول من استخدم تعبير فلسفة التاريخ حين ميّز بين الظاهر والباطن في التاريخ، "في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق"²⁴، ففلسفة التاريخ عند ابن خلدون تتجاوز السرد والحشد والإخبار دون ربط بينها، كما تهدف أيضا إلى التعليل، ومن ثمّ نقطة البدء في فلسفة التاريخ عنده تكامل بين الأجزاء وترابط بين الوقائع، ويتشكل من ذلك كلّ ما يسمّى بالتاريخ العالمي الذي يصبح مادة الفيلسوف.

²² - المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 169.

²³ - محمد جاسم سلطان، الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ-أداة فلسفة التاريخ-، مؤسسة أم

القرى، ط1، 2005، ص 21.

²⁴ - ابن خلدون، مصدر سابق، م1، ص 7، 8.

يعد الفيلسوف الفرنسي فولتير (1818-1866م Voltaire) أول من صاغ مصطلح فلسفة التاريخ ويقصد بها دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف²⁵، فالملحظ على فولتير أنه رفض دراسة التاريخ أكواما متراكمة عن المعارك الحربية أو المعاهدات السياسية دون عناية بمفهوم، أو حكمة بادية، وهو لذلك أراد تنقيح التاريخ بما يمكن تسميته بالتاريخ النقدي، الذي مهمته تنقية الفكر الانساني من العبودية والخرافة، فكانت بذلك النقلة الأولى من دراسة الحدث إلى دراسة فلسفة الحدث.

"وقد كان السبب الأساسي لنشأة فلسفة التاريخ كما أوضح روادها الأوائل، هو قصور الطريقة التاريخية عن اكتشاف مسار التاريخ وغايته، فجاءت فلسفة التاريخ لتقدم العون والمساعدة للمؤرخين من أجل بلوغ هذا الهدف"²⁶.

وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر إلى فلسفة التاريخ بمنظورين أساسيين هما:

المنظور الأول: يجعل فلسفة التاريخ دراسة لمناهج البحث، أي الطرق التي يمكن أن يكتب بها التاريخ، وهذا يعني فحصا نقديا لمنهج المؤرخ.

²⁵ - رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص 22.

²⁶ - هاشم يحي الملاح، الفصل في فلسفة التاريخ-دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية-، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2007، ص 4.

المنظور الثاني: يسمى النشاط التركيبي وفيه يقدم الفيلسوف وجهة نظر عن مسار التاريخ ككل، أي تاريخ الإنسان وتطوره الحضاري بغض النظر عما في هذا التاريخ.²⁷

وبناءً على ما سبق يمكن تعريف فلسفة التاريخ على أنها "العلم الذي يبحث في الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية، فيسعى لاكتشاف العوامل الأساسية التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية، ويعمل على استنباط القوانين العامة، التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والأجيال، فهو يهتم باكتشاف السنن والقوانين التي تحكم تحولات ومتبدلات الأمم والشعوب عبر الماضي والحاضر والمستقبل".²⁸

أو هي "البحث في المبادئ العامة التي يخضع لها تطور المجتمعات البشرية، وهي تعنى بتفسير مجرى التاريخ في ضوء نظرية عامة على أنه كلٌّ غير منقسم إلى أحداث وتضع لعلم التاريخ أساساً فلسفياً بتمحيص المنهج الذي يصطنعه المؤرخون، وبمناقشة وتحليل المصادر ودراسة مصطلحات المؤرخين".²⁹

وقد كانت فلسفة التاريخ كما ظهرت في كتابات هردر (1744-1803م) وكانت (1798-1857م Conte) وهيجل (1770-1831م Hegel).... ومن سار على نهجهم فلسفة تأملية ميتافيزيقية إلى حد كبير وذلك لإثبات أن للتاريخ وحدة، ويمثل خطة كلية بالرغم من التفكك

²⁷ - رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص 23.

²⁸ - عامر الكافيشي، حركة التاريخ في القرآن الكريم، دار الهادي، لبنان، ط1، 2003، ص 87.

²⁹ - المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 139.

والانحرافات الظاهرة، وإذا استطعنا فهم الخطة أمكننا لقاء الضوء على تفاصيل سير الوقائع، وأن التاريخ يتبع طريقة تتفق مع العقل³⁰.

ثانياً: مقولات فلسفة التاريخ

1/ الكلية: ففيلسوف التاريخ يفرض أن يكون التاريخ ركاباً من الأحداث الثقافية، التي لا يربطها نظام ولا هدف وأنه يسعى لفهم التاريخ على أساس أنه وحدة عضوية مترابطة الأجزاء، تتجاوز حدود الزمان والمكان³¹.

2/ السنن التاريخية (العلية): وهي تلك الضوابط والقوانين والنواميس التي تتحكم في عملية التاريخ، أو هي القانون العام الذي وضعه الله لحكم سلوك البشر وأفعالهم وما يصيبهم (من خصائصها الاطراد، الربانية، الانسانية)³².

"فالعلية في الحوادث التاريخية، تعني أن هناك علاقة ضرورة وتربط داخلي بين الحوادث، بمعنى وقوع الحدث الأول يفرض وقوع التالي والعكس بالعكس..... وهذه الرؤيا القائلة بالتربط الداخلي بين الحوادث، يشترك فيها ذوو النظرة اللاهوتية مع هيغل القائل بالمثالية المطلقة، مع أصحاب المادية التاريخية الذين أعادوا الحوادث كلها إلى علة غائية مطلقة، هي تطور علاقات الانتاج، وهذه نظريات ثلاث تتحد في الأساس في نظرتها بوحدة الكون، وبكونه جوهرًا واحدًا متكاملًا"³³.

³⁰ - هاشم يحيى الملاح، مرجع سابق، ص 6.

³¹ - أحمد محمود صبيح، في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، لبنان، دط، 1994، ص 124.

³² - عامر الكافيشي، مرجع سابق، ص 229.

³³ - صائب عبد الحميد، فلسفة التاريخ في الفكر الاسلامي-دراسة مقارنة بين المدارس الغربية الحديثة والمعاصرة-، دار الهادي، دط، دت، ص 28.

3/ الغائية: وتعني القصد الخفي الذي يتجه صوبه التاريخ، والذي يتحقق تدريجيا عبر الزمن التاريخي³⁴.

ثالثا: نظريات فلسفة التاريخ

إن فلسفة التاريخ بوصفها محاولة للتعرف على العامل أو العوامل المحركة لأحداث التاريخ وتطوراتها، لم تظهر في إطار الفكر الإنساني إلا بعد تطور طويل استمر سنين عديدة، وقد ارتبط هذا التطور ارتباطا وثيقا بنمو الوعي التاريخي الذي يقوم على الإدراك المتنامي لأهمية العناصر الثلاثة الرئيسية في صنع أحداث التاريخ وبناء الحضارة وهي: الإنسان، الغيب، الطبيعة.

وهكذا فقد ترتب على تنامي الوعي التاريخي عبر حقبة التاريخ المختلفة، وفي شتى المجتمعات، ظهور العديد من المحاولات التي تسعى إلى اكتشاف العوامل المحركة لأحداث التاريخ، في صورة تأملات ونظرات وتفسيرات دينية وفلسفية للتاريخ، سبقت النظريات التأملية الكبرى في فلسفة التاريخ.

إن ما تقدم يفرض علينا أن نستعرض في هذا المبحث أهم المدارس التي ظهرت في هذا المجال وهي:

1: التفسير اللاهوتي للتاريخ

من المسلمات الاعتقادية الأولى في كل الأديان السماوية الثلاث (اليهودية، المسيحية والاسلامية)، أن جميع ما في الكون من جماد ونبات وحيوان وإنسان مخلوق من العدم، وهو محدث وليس أزلي، ومن ثم

³⁴ - المرجع نفسه، ص30.

فإن لكل ما في الكون من مخلوقات زمنا معلوما، أو تاريخا محددا توجد فيه أو تحيا خلاله، ثم لا تلبث إذا انتهى عمرها، أو حان أجلها، أن تسلم أمرها للموت، أو الفناء بحسب طبيعتها أو النوع الذي تنتمي إليه. ويتفرع من هذه المسلمة الاعتقادية الأولى في النظر إلى الحياة والكون، مسلمة أخرى تفوقها أهمية وخطورة، وهي أنّ لهذا الكون خالقا لا يحده زمان أو مكان وهو كلّ القدرة، وقد أطلق على هذا الخالق أسماء متعددة ولكن جوهر هذه التسميات ومعناها في اللغة العربية هو الله³⁵.

وتشير هذه النظرية أنّ كل ما يفعله الإنسان في تاريخه هو تخطيط إلهي، وكل ما يحدث هو مشيئة الله التي لا يملك الإنسان في مختلف العصور إلا تنفيذها، والالتزام بالدور المرسوم له من قبل العناية الإلهية منذ الأزل، فالفعل الإلهي في التاريخ واضح لا شك، فكل ما نراه من مظاهر تتصور أنها فوضى إنسانية، هي في الواقع من التدبير الإلهي المحكم الذي لولاه لم يكن للوجود ككل أي معنى، ولم يكن للوجود الإنساني ضرورة تذكر³⁶.

فالأديان الكبرى ترى في حياة المجتمعات المادية انعكاسا للفكرة الإلهية وكل محاولة تغيير في المجتمع هو إلحاد وكفر، فهي لم تتصور التاريخ أفعالا وردود أفعال متبادلة بين البشر في عالم أرضي هو نهاية كل شيء.

"وتعتبر هذه النظرية (العناية الإلهية) من أقدم النظريات في تفسير الطبيعة والتاريخ باعتبارها نظرية دينية بحتة، إلا أنها اتخذت في

³⁵ - هاشم يحي الملاح، مرجع سابق، ص 62.

³⁶ - مصطفى النشار، فلسفة التاريخ، شركة الأمل للطباعة والنشر، ط 1، 2004، ص 73، 72.

أوروبا شكلها الفلسفي في التفسير المسيحي اللاهوتي، الذي وضعه أوغسطين (354-430م Augustine) في كتابه مدينة الله معتمدا تطبيقات تاريخية³⁷.

لقد سادت فكرة العناية الإلهية معظم الحضارات القديمة بقدر دور الدين فيها، ولكنها تفاوتت في مفهومها، "فقد آمن معظم الشعوب كالمصريين والبابليين والآشوريين والأكاديين ثم اليونان أن الإنسان جزء من الكون، ومن ثمّ تسري عليه ما يسرى على الكون من نواميس"³⁸.

"هذا على أن بني اسرائيل قد خالفوا هذه الشعوب، باعتقادهم أن اليهودي وحده دون سواه أصبح له وضع في هذا الكون حيث أصبح عالمه مظهرا لعناية الله، وأن هذه العناية مقصورة على شعب الله المختار، وأن أحداث التاريخ لا تتكرر ولا تتعاقب، ولكنها تتخذ مسارا مستقيما لتستكمل هدف يهوه بالعودة إلى أرض الميعاد"³⁹.

وعليه فإن التفسير اليهودي للتاريخ يستند على تقسيم التاريخ إلى قسمين: تاريخ مقدس وتاريخ طبيعي فتاريخ بنو اسرائيل هو تاريخ مقدس لأنه يحظى بالعناية الإلهية، أما تاريخ بقية الناس فهو تاريخ طبيعي، عادي، لا سبيل للقداسة إليه. فهو بذلك يضع اليهودي في إطار مغلق مخصص بالعناية الإلهية.

³⁷ - صائب عبد الحميد، مرجع سابق، ص82.

³⁸ - أحمد محمود صبيح، مرجع سابق، ص167.

³⁹ - رأفت غنيمي الشبخ، مرجع سابق، ص73.

"أما عند المسيحيين فالتاريخ سلسلة ممتدة ومتتابعة من الأحداث، تشكل حلقاتها من الطرف الأول مرحلة التمهيد لحادث مركزي، بينما تشكل حلقاتها التي تلي هذا الحادث جانب التحقيق الرتيب لتتابع هذا الحادث المركزي الأساسي، فهي تعتبر أن الحقب التي سبقت ظهور المسيح فترات إعداد لهذا الظهور، غير أن هذا الظهور تجسيد للوجود الإلهي على طريق الحلول، وبهذا يدخل الإله في التاريخ"⁴⁰.

_ التفسير المسيحي يضع الإنسان هو الآخر في دائرة ضيقة محصورة من ديانة معينة، وأن التاريخ من دون المسيحية يفقد معناه تماماً، ويستند على فكرة حلول الله في التاريخ أو الإنسان، لإضفاء بعض القداسة على التاريخ.

أما التاريخ عند المسلمين فقد ارتكز على نظرة الاسلام للتاريخ التي تنطلق من علاقة الله بالإنسان وبالكون، أي علاقة مخلوق بخالق، فالعلاقة علاقة تصريف وتدير، وهيمنة وسيطرة بالعلم والإرادة والقدرة... فالإسلام يرى أن هناك غاية من الخلق، وهي معرفة الله وعبادته، وأن التاريخ تحكمه مجموعة من القوانين يمكن بواسطتها تفسير حركة التاريخ.

فالثبات في القانون الإلهي هو الذي يمنح التاريخ وحدته، وإذا كان الإنسان يحتفظ بحق صنع تاريخه، فإنه يستعمل في صنع ذلك طاقاته

⁴⁰ - محمد كمال ابراهيم جعفر، في الفلسفة الاسلامية، مطابع القبس التجارية، الكويت، ط1،

وملكاته التي هي من صنع الله (يظهر الفعل الإلهي في التاريخ دون حلول أو اتحاد)⁴¹.

_ نلاحظ أن الأديان الثلاثة اتفقت في تفاسيرها وأبرزت عناية الله بخلقه، ووجود هدف واضح من الخلق ووحدة التاريخ باعتباره مشروعاً لتحقيق هذا الهدف، لكنها في المقابل اختلفت في خصوصية هذه العناية واقتصارها على مجتمع دون آخر.

وهكذا يمكن تعريف العناية الإلهية بأنها "تقوم على مبدأ يعطي الله كل الفعل في الأحداث التاريخية، ويعفي الإنسان من صنع تاريخه، بمعنى أن الأحداث والظواهر التاريخية تخضع لمشئته الله وحده، دون تدخل من الإنسان المخلوق الذي عليه أن يسير دون اختيار في حياته، فهو مسير وليس مخير، وأن وقائع التاريخ تخضع للمشئته الإلهية، وتنكر القول بالمصادفة لأنها لا تعني إلا الفوضى والعبث"⁴².

"أي أن الله بعد أن خلق هذا العالم لم يكن ليتركه نهياً للمصادفات والعلل الخارجية العرضية، وإنما يشغله بعنايته ويحكمه وفق إرادته، وهذا يعني أن التاريخ مغزى وغاية تحقق هذا المغزى، وقد أحكمها الله منذ خلق العالم"⁴³.

فالنظرة اللاهوتية تصوّر التاريخ على أنه فترة من الزمان تتحقق فيها خطة الله في الرجوع/الخلاص/النجاة فالتاريخ هو:

⁴¹ - المرجع نفسه، ص 126، 122.

⁴² - رأفت غنيمي الشيش، مرجع سابق، ص 75.

⁴³ - صائب عبد الحميد، مرجع سابق، ص 82.

- تاريخ الرجوع بالنسبة لليهود.
- تاريخ الخلاص بالنسبة للمسيحيين.
- التكامل بالنسبة للمسلمين.

2: التفسير الوضعي المادي

قلنا فيما سبق أن نمو الوعي التاريخي عبر حقب التاريخ المختلفة أدّى إلى ظهور العديد من المحاولات التي تسعى إلى اكتشاف العوامل المحركة لأحداث التاريخ، ومن بين هذه المحاولات التفسير المادي للتاريخ الذي تزعمته الماركسية، والحقيقة أن التفسير المادي للتاريخ ليس وليد اليوم بل يعود إلى قرون خلت، إذ تعتبر الأبيقورية في العصور القديمة من أولى المنظومات الفلسفية المادية وأكثرها تجانسا وخاصة فيما يتعلق بالجانب المرتبط بلامبالاتها بالأمور الدينية والروحية، وقد تراجع هذا المنحى في القرون التي تلت، حيث جعل انتصار المسيحية من قبيل الخطر كل تلك المناحي التي كانت إلى مثل ذلك التخلي عن فكرة الإله، لكن بدءاً من القرن الثامن عشر بدأ العديد من الكتاب والفلاسفة إعادة طرح المفاهيم المادية من جديد، وقد سمّيت حين ذاك بالنظريات الميكانيكية ولعل أبرز روادها أوغست كونت (1795-1857م Auguste Comte) الذي ابتكر نظرية لفهم الكون وصف من خلالها علوم الدين بأنها وسائل مهمة ركيكة لا تصلح لتفسير الوجود، وأن كل ما يدور حول أصل العالم ولماذا وجد لا يمكن إدراكه بالعقل، وأن علوم الدين والفلسفة النظرية قد ناب عنهما العلم⁴⁴. وقد قسّم كونت المراحل

⁴⁴ - محمد طالب مدلول، موقف القرآن الكريم من الفكر المادي، دار الكتب العلمية، لبنان،

الحضارية الكبرى لتطور الفكر البشري إلى ثلاث مراحل سمّاها قانون التطور في التاريخ وهي:

1: المرحلة اللاهوتية أو الخيالية.

2: المرحلة الغيبية أو التجريدية.

3: المرحلة العلمية أو الوضعية.

وكل مرحلة في حد ذاتها تتضمن التطور⁴⁵.

إن الملاحظ لتقسيم كونت يدرك أنه اعتبر الدين مصدرًا للمعرفة في القرون الوسطى، والعقل في عصر التنوير، ثم المعرفة الحسية في القرن التاسع عشر، فالمذهب الوضعي يرفض كل مشكلات الفلسفة، وأبرزها علاقة الوعي بالوجود باعتبارها لا تخضع للمنهج التجريبي.

وقد وصف كونت التاريخ بأنه يتقدم من أحوال الحرب إلى أحوال الصناعة السلمية عبر انتشار التفكير الجماعي العلمي الذي يحمل البشرية أماما نحو السلام الشامل، فالهدف المركزي للجهود البشرية هو التحسن الخلقي، الذي يجب أن يفهم على أنه العيش من أجل الآخرين⁴⁶.

وقد نادى كونت أيضا بدين جديد هو دين الإنسانية بدلا من الأديان اللاهوتية التي قضى عليها بالهلاك، وهذا الدين يختلف عن

⁴⁵ - ألبان.ج. ويدجري، التاريخ كيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى تويني، ترجمة، عبد العزيز

جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1996، ج1، ص109.

⁴⁶ - محمد طالب مدلول، مرجع سابق، ص67.

أديان العالم الأخرى بأنه ليس فيه بنود سماوية أو شروط غير عقلية ووضع لها شعارا هو: المحبة مبدأ، والنظام أساس، والتقدم غاية⁴⁷.

ثم جاء بعد كونت كارل ماركس (1818-1866م) (Carl Marks) الذي وضع للتفسير المادي قواعده، حيث تسير مادية ماركس الفلسفية على المبدأ القائل "أن العالم بطبيعته مادي، وأن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر للمادة المتحركة، وأن العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكيف بعضها بعضا بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية، هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة، وأن العالم يتطور تبعا لقوانين حركة المادة، وهو ليس بحاجة لأي عقل كلي"⁴⁸.
فالفلسفة الماركسية تجعل من المادة مساوية للوجود.

ولأن المادة حسب ماركس هي معطى أولي فهي مصدر الأحاسيس والتصورات والوعي، بينما الوعي هو معطى ثان لأنه انعكاس المادة والكيونة وأن الفكر بصورة أدق هو ثمرة الدماغ⁴⁹.

فالفكر الإنساني عبارة عن شكل معقد سامي من أشكال المادة ليس إلا، وإذا كانت الحياة هي الأخرى من بعض ثمارها ونتائجها، فلا بد أن تكون هذه الرحلة التاريخية الطويلة التي قطع الإنسان إلى اليوم ما قطع من أشواطها، هي أيضا من ثمرات المادة وآثارها، إذ التاريخ بكل ما يتضمنه من أفكار وعلوم وآداب واقتصاد وفنون ودين، ليس إلا من نتاج الحياة والفكر، اللذين ليس كل منهما شيئا أكثر من انتاج

⁴⁷ - المرجع نفسه، ص 68.

⁴⁸ - محمد باقر الصدر، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، لبنان، ط 3، 2009، ص 261، 262.

⁴⁹ - بوليتزر جورج، جي بيس وموريس كافين، أصول الفلسفة الماركسية، ترجمة، شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، لبنان، دط، دت، ج 1، ص 168.

المادة، فلا بد إذا أن تخضع حركة التاريخ الاسلامي للقانون ذاته الذي خضعت له حركة المادة في أطوارها وتقلباتها، وعلى هذا فإن ما قد ظهر في تاريخ البشرية من أفكار وعلوم وقيم وأخلاق وفنون وآداب إنما آثاره الصراع من أجل المادة والعيش⁵⁰.

فالملاحظ هنا أنه لا يمكن فصل العالم عن المادة لأنها هي أساس جميع التغيرات التي تحدث.

"فالتاريخ عند الماركسية هو سجل من التفاعل الانساني مع الطبيعة في واقعها الملموس، وهو ما يزال في السير والتتابع ليحقق في النهاية السيطرة الجماعية أو الشعبية على صنعه"⁵¹.

"فالناس يصنعون تاريخهم الخاص مهما تكون نتيجته، وذلك من حيث أن كل فرد يجري وراء غايته المرغوبة شعوريا، والذي يشكل التاريخ هو بالضبط الحصيلة المتحصلة من هذه الإرادات الكثيرة، التي تعمل في اتجاهات مختلفة وسواء تحققت رغبات الانسان الشعورية أم لم تتحقق، فإن التاريخ تتحكم فيه دائما قوانين داخلية مستترة، وهذه القوانين شيء اقتصادي في نهاية الأمر، إذ تنطوي على مبدأ الحتمية التاريخية"⁵².

⁵⁰ - محمد سعيد رمضان البوطي، نقض أوهام المادية الجدلية، دار الفكر، لبنان، ط2، 1979، ص50، 49.

⁵¹ - محمد كمال ابراهيم جعفر، في الفلسفة الاسلامية، مطابع القبس التجارية، الكويت، ط1،

1986، ص111

⁵² - ألبان ج ويدجري، مرجع سابق، ص105.

فالمادية التاريخية إذن هي مذهب حتمي موضوعاته الأساسية تؤكد أن الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي، وتاريخ المجتمعات الإنسانية قابل للتغيير وليس عرضياً أو اعتباطياً فمسيرته لا تتوقف على نزوات غير متوقعة للتحويلات الوراثية أو لبعض رجال الدين العظام، وهو يفسر في الأخير بنية المجتمع الأساسية في كل عصر محدد بالتناقضات الجوهرية لتلك البنية، وطالما بقي المجتمع منقسماً إلى طبقات فهو يفسر إذا بالصراع الطبقي.

فالمادية التاريخية هي علم المجتمعات الإنسانية، الذي يحاول أن يعطي صورة عن دياكتيك الانتاج/التواصلات البشرية وأن يشرحه (المادية التاريخية تقوم على الصراع بين القوى المنتجة النامية، وعلاقات الملكية القائمة).

إن المادية التاريخية تجعل من الإنسان صانع تاريخه، لكنه بالمقابل يكون نتاج شروط مادية أليست هذه الشروط المادية هي بدورها نتاج ممارسة الناس الاجتماعية؟

فالنظرة المادية عاجزة عن إعطاء هدف واضح للتاريخ جدير بإشباع طموح الإنسان وشعوره بتساميه على هذا العالم المحسوس.

❖ القواعد التي يركز عليها التفسير المادي:

01_ وجود الإنسان هو الذي يحقق وجدانه وليس العكس، وهذا الوجود تحدده وظيفته التي يكتسي بها معاشه.

02_ الحتمية: أي القوى الاقتصادية أقوى من سيطرة الأفراد، ومنطق الحتمية يسود مسار التاريخ.

03_ الواحدية في تفسير التاريخ: إذ تجعل العوامل الروحية والفكرية تابعة للعمل الاقتصادي⁵³.

04_ الغائية: الإنسانية هي الغاية التي ينبغي أن يعمل الناس من أجلها في التاريخ⁵⁴.

❖ أسس الفكرة المادية عن التاريخ:

01_ يدخل الناس في غمرة الإنتاج الاقتصادي والاجتماعي في بعض العلاقات ويضطرون دون إرادتهم إلى أن يكونوا بعض الظروف (ظروف الإنتاج تتفق مع مرحلة معينة من تطور القوى المادية)⁵⁵

02_ إن ظروف الإنتاج إذا أخذت ككل تكون الكيان الاقتصادي للمجتمع، وهذه هي القاعدة المادية التي يقام عليها بنیان القواعد والأنظمة السياسية، والتي يرجع إليها بعض أشكال الوعي السياسي

03_ ليس وعي الإنسان هو الذي يعين أشكال الوجود، بل أشكال الحياة الاقتصادية والاجتماعية هي التي تعين الوعي.

04_ بعد أن تبلغ قوى الإنتاج المادية مرحلة معينة من التطورات تصطدم مع ظروف الإنتاج الموجودة (أي مع نظام الإنتاج الذي تعمل في ظله)

05_ إن تاريخ المجتمع منذ وجد حتى الآن هو تاريخ صراع طبقات، حر وعبد، نبيل وعامي ظالم ومظلوم....كلهم وقفوا موقف المعارضة

⁵³ - أحمد محمود صبيحي، مرجع سابق، ص242، 239.

⁵⁴ - ألبان ويدجري، مرجع سابق، ص106.

⁵⁵ - عبد الحميد صدّيقي، تفسير التاريخ، ترجمة، كاظم الجوادي، دار القلم، الكويت،

ط1980، 1، ص89.

الدائمة، بعضهم لبعض، وقاموا بحرب لا انقطاع لها، حرب كانت تنتهي إما بإعادة بناء المجتمع كلياً بشكل ثوري، أو بتدمير الطبقات المتصارعة جميعاً.⁵⁶

فالماركسية هي فلسفة الإنسان الذي ينجز نفسه في التاريخ بخضوعه الحر للمادية الجدلية.

❖ القوانين الأساسية التي تشكل المنهج الماركسي في تفسير التاريخ:

01_ التغير من الكم إلى الكيف: التغير الحادث في جميع الظواهر الطبيعية والإنسانية هو التغير من الكم إلى الكيف، ويتم ذلك التغير طفرة، إذ لا يعرف حد فاصل في تدرج التغيرات الكمية عندما يستحيل الكيف إلى كيف آخر.

02_ تداخل الأضداد وصراعها: كل ظاهرة تشكل وحدة عضوية يمكن التناقض فيها، إذ هي لا تتغير بسبب علل خارجة عنها، بل يمكن التناقض والصراع في أعماقها، وذلك هو سر التطور، فالتناقض هو القوة المحركة للتاريخ الطبيعي والإنساني معاً.

03_ قانون نفي النفي: كل مرحلة تنفي التي قبلها، وليس النفي نفي فناء بل هدم وبناء.⁵⁷

وخلاصة القول أن الماركسية هي القوانين الطبيعية التي تتحكم في حركة المجتمع، منذ نشوء أول مجتمع إنساني وفي مختلف مراحل تطور المجتمعات البشرية، وستبقى تعمل طالما وجدت مجتمعات

⁵⁶ - عبد الحميد صديقي، مرجع سابق، ص 90.

⁵⁷ - أحمد محمود صبحي، مرجع سابق، ص 221، 223.

بشرية على الأرض، ويمكننا تقسيم الماركسية إلى شقين أساسيين هما: المادية الجدلية (الديالكتيك) وهي القوانين التي تحكم الطبيعة من حولنا حيث تقوم على تفسير جميع الظواهر الطبيعية على أساس مادي جدي يرضخ إلى عدة قوانين كوحدة صراع المتناقضات، تحول الكم إلى الكيف ونفي النفي.

أما الشق الثاني: فهي المادة التاريخية وهي تعمل على تفسير المجتمع الإنساني.

وعليه فالمدرسة الوضعية المادية ترى أن التاريخ هو المجتمع بنظمه وقوانينه كما وضعها الإنسان، وهي نظرة تؤدي إلى غربة الإنسان وبعده عن الكون، وتنتهي إلى تضاد الإنسان مع الكون.

3: التفسير الوجودي (النظرة الهيومانية) للتاريخ

كلمة الوجودية تشير إلى عدة مذاهب فلسفية متنوعة، لكنها تشترك جميعاً في أصل واحد، هو النظر إلى الإنسان من حيث قدرته على تحديد مصيره، فهي تنطلق من نظرتها إلى الإنسان التاريخي بالمعنى الدقيق، نظرة تقوم دائماً على الشعور بأنه موجود في محل من المكان والزمان، وأنه يوجد في جملة معقدة الأواصر فيها تشكلت شخصيته، وأن الوجود تحمله هزة كونية لا اتجاه لها وليس من مسؤول عنها، فالوجودية بالمعنى العام تيار فلسفي يعلي من قيمة الإنسان (حسب روادها)، ويؤكد على تفردّه وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار، وتنقسم الوجودية إلى قسمين:

- 01_ وجودية ملحدة: ومن روادها جون بول سارتر (1905-1979م
(J.P.Sartre)، هيدغر (1889-1976م (Heidegger)
- 02_ وجودية مسيحية (مؤمنة): ومن روادها غابريل
مارسال (1889-1973م (Gabriel Marcel)

"يبدأ الأسلوب الوجودي في التفلسف من الإنسان لا من الطبيعة فهو فلسفة عن الذات، والذات عند الفيلسوف الوجودي هي الموجود في نطاق تواجده الكامل، فهذا الموجود ليس ذاتا مفكرة فحسب، وإنما هو الذات التي تأخذ المبادرة في الفعل وتكون مركزا للشعور والوجدان"⁵⁸.

"فالتفكير الوجودي في روحه الأصيلة ينكر كل جهد يحاول إيجاد الحقيقة داخل التصورات العقلية، أو يحاول حصر الحقيقة ووضعها في نسق محكم البنيان، أو في مذهب مترابط الأركان"⁵⁹.

"فالوجودية ترى أن الإنسان ينتقل من الوجود إلى الذات، وأنه يصنع نفسه بالتاريخ فالإنسان ينطلق من معرفة ذاته على أنه فاعل، ويكتشف حريته في عالم يسود فيه الحوار عالم يبدو فيه كل شيء مفجعا غامضا. ففي الآفاق الوجودية لا يبقى التاريخ منى يمكن التنبؤ به، بل يغدو التاريخ ما يصنعه الإنسان، ولهذا يقول سارتر أنه لا وجود لطبيعة إنسانية معلقة كالمثل الأفلاطوني فوق التاريخ، بل إن في وسع

⁵⁸ - جون ماكوري، الوجودية، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، دط، 1982، ص16.

⁵⁹ - علي عبد المعطي محمد، أعلام الفلسفة الحديثة، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1997، ج2، ص211.

كل فرد أن يخترع الإنسان باستعمال حريته الكاملة، وما الطبيعة الإنسانية إلا ما يولد في الزمان بنتيجة ابتكاراته الحرة"⁶⁰.

لذلك يرى سارتر أنه من الواجب أن نطرد من التاريخ وسواس المطلق، نطرد الشعور بتعال يوجهه ويرين على إرادة الإنسان، تعال يبدل إرادته شيئاً آخر غير أن تكون طراز الاستجابة لوضع معطى آخر نحو أصيل دائماً، مبتكر دوماً، من الواجب أولاً أن نطرد الله من التاريخ. لأنه لا وجود للخير ولا للشر لا وجود لمطلق في العالم بدون إشارة، لا يوجد إلا الإنسان الحر الذي يصنع تاريخه ويصنع ذاته في التاريخ ومن أجل ذلك يقول أن إقحام فكرة مطلق وسرمدي في التاريخ يؤدي إلى انحراف وثبة القلب نحو هذا الوهم الذي هو الله"⁶¹.

"وإلى هذا الرأي ذهب هيدغرخين قال: أن محاولة التعالي أو التسامي نحو الإله لا جدوى منها، فهذا التسامي ليس للإله، لأن الإله غير موجود، لكنها حركات تتعالى إلى العالم، إلى المستقبل، وإلى الناس، فنرى صفة التعالي تفقد صفتها الدينية"⁶².

فالموجود البشري هو نفسه موضوع التاريخ أما الطبيعة فلا تاريخ لها، فالاهتمام بالتاريخ ليس أساساً اهتماماً بالماضي، وإنما هو محاولة

⁶⁰ - بيير هنري سيمون، الفكر والتاريخ، ترجمة، عادل العوا، المكتبة الهاشمية، دمشق، دط، دت، ص 152.

⁶¹ - المرجع نفسه، ص 156، 163.

⁶² - محمد ابراهيم الفيومي، الوجودية فلسفة الوهم الإنساني، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، دط، 1984، ص 69.

للعثور على طريقنا في الحاضر والمستقبل من خلال دراسة الممكنات البشرية التي تتكشف في التاريخ.⁶³

"وقد حذا ألبير كامو (1913-1960م) (Albert Camú) حذو سارتر وهيدغر حين قال: أن الله غائب عن التاريخ، وأن مسألة إرجاعه ليست ذات موضوع، فالله لا يمكن أن يكون نصف ميت، فإذا لم يكن المطلق في الله فإنه لا يمكن أن يكون إلا في الإنسان، الذي سيتجاوز ذاته ليصنع منها إلها... فالتمرد هو الذي صنع الإنسان العارف الذي يعي حقوقه، فالإنسان المتمرد هو الإنسان الموجود أمام المقدس أو بعده، الحريص على المطالبة بنظام إنساني تكون الأجوبة كلها فيه إنسانية"⁶⁴.

أما ويلهم دلتاي (1833-1911م) (Wilhelm Dilthey) فقد اعتبر التاريخ ظاهرة بشرية وأن دراسة التاريخ لا بد من ثم أن تعد علما بشريا، فكل الأحداث التاريخية سببتها فاعلية الإنسان... إن المسار الطويل للتطور الكوني والبيولوجي معا كان مسارا طبيعيا، يمكن وصفه في إطار قوانين الطبيعة، أو الإطارات التي تقوم العلوم الطبيعية باكتشافها، لكن مع ظهور الإنسان دخل عامل جديد هو العامل التاريخي، وبفضل هذا العامل أصبحت حياة الإنسان الداخلية تكشف عن نفسها الآن في أفعالها وتقوم بدور تشكيل العالم.⁶⁵

قلنا فيما سبق أن كلمة الوجودية تشير إلى عدة مذاهب فلسفية لها نظرة واحدة تجاه الوجود الإنساني على أنه صانع ومقرر مصيره،

⁶³ - جون ماكوري، مرجع سابق، ص 254.

⁶⁴ - بيير هنري سيمون، مرجع سابق، ص 163، 170.

⁶⁵ - جون ماكوري، مرجع سابق، ص 224، 243.

ومن هذه المذاهب نظرية التقدم والفعل الإنساني التي جاء بها فولتير. وقد اتخذ تفسير التقدم عدة معاني نذكر منها:

01/ معنى تطوري: أي معنى التقدم متضمن في الطبيعة ذاتها، فالإنسان بوصفه ابناً للطبيعة خاضع للقانون التاريخي، ومن ثمّ فإن التاريخ لا بد أن ينطوي على تطور نحو ما هو أسمى.

02/ معنى فلسفي مذهبي: اتخذ مفهوم التقدم طابع نظرة شاملة في فلسفة التاريخ.

03/ معنى سياسي: يقوم على حدوث المد الاستعماري في القرن

19م

04/ معنى حضاري: يقوم على استغلال العلم وتقدمه في جو ديمقراطي في السيطرة على قوى الطبيعة وتسخيرها لصالح الإنسان وسعادته.⁶⁶

فإن الله حسب فولتير خلق العالم وفق قوانين ثابتة لا علاقة لها بأفعال الإنسان من خير أو شر، ومنح الإنسان العقل ليحسن استخدامه من أجل سعادته وسعادة الآخرين، ومن ثمّ فإن التاريخ يسير بمقتضى العقل البشري نحو الأفضل والأحسن، فالتاريخ إذا عبارة عن تقدم نحو كمال وضعية الإنسان على الأرض.⁶⁷

⁶⁶ - رأفت غنيمي الشبخ، مرجع سابق، ص 95.

⁶⁷ - أحمد محمود صبحي، مرجع سابق، ص 184.

_ إن دعوة فولتير هي دعوة علمانية بحثة بالتعبير الحديث، لأنه دعا علمنة كل نواحي الحياة البشرية والفكر الإنساني للتطلع نحو شروق شمس العقل والعلم.

أما عند كوندرسيه (1743-1794م Condorcet) فالتاريخ البشري طوى مراحل متعددة في تقدم وتكامل وهو لن يتوقف، بل إن الإنسانية ستخطو قدما نحو المساواة والتخلص من العبودية، ويحدوا الإنسان الأمل في مستقبل قائم على احترام حقوق الفرد وتقدم العلم، وبذلك تسير الإنسانية نحو سعادة فكرية وخلقية واجتماعية⁶⁸.

ويؤكد معظم أنصار هذه النظرية على حتمية التقدم، الذي يقوم على أساس أن الحياة تتكوّن من البسيط إلى المركب إلى الأكثر تركيباً طبقاً لقانون حتمي، وينقسم أصحاب هذه النظرية إلى فريقين على طرفي نقيض هما:

الفريق الأول: يدين بفكرة تراجعية في تفسير أحداث الماضي، مؤداها أن التاريخ الماضي يمثل قوى اللامعقول، وتزعّمه: فولتير، مونتسكيو (1689-1755م Montesquieu) إدوارد جيبون (1737-1794م GibbonEdward)، بيركهارد (1784-1806م Burckhardt) وغيرهم.

الفريق الثاني: يدين بفكرة مستقبلية تتطلع على أمل سيطرة العقل على النشاط البشري وهو رأي كوندرسيه⁶⁹.

⁶⁸ - صائب عبد الحميد، مرجع سابق، ص 85.

⁶⁹ - رأفت غنيمي الشيخ، مرجع سابق، ص 97.

وفي الأخير يمكننا القول أنّ المذهب الوجودي يتلخص في قول سارتر: بأن ماهية الأشياء المصنوعة تسبق وجودها، بينما وجود الإنسان سبق ماهيته التي يحددها وينحتها بنفسه وبكامل الحرية " إن الوجود يسبق الماهية وإن الإنسان مطلق الحرية في الاختيار فهو يصنع نفسه بنفسه، ويملاً وجوده على النحو الذي يلائمه فالإنسان إذن هو الذي يختار ماهيته وهو حر في اختياره لكيانه وسلوكه ومصيره". وقد ظهرت الوجودية كرد فعل للطوق الذي وضعته الفلسفات التقليدية على الإنسان وحرمانه من حريته الحقيقية التي ترافقه منذ لحظة ولادته، فالطريق الوجودي يبدأ بالأشخاص ثم يضمن الأشخاص بالأشياء، لكي تزداد خبرتهم وتصبح أكثر وضوحاً، ثم يعود إلى الأشخاص مرة أخرى لكي يصل إلى النوع الصحيح من الذاتية.

ولو أن ما يؤخذ على الوجودية أنها حاولت رسم مفهوم الإنسان إلى أنها انتهت إلى لا شيء فقد جعلت الإنسان يحيا بلا أمل وبلا هدف، في كون تكتنفه الظلمات واليأس من كل جانب فقد جرّدت الإنسان من كل ثقة في الحياة.

فالوجودية فلسفة ذاتية تعمل على إرضاء الذات وإرضاء الشخص مهما كانت النتائج، فكانت بذلك بعيدة كل البعد عن الإنسانية، لأن فهم الذات يؤدي بالضرورة إلى القرب من الله وليس نفيه كما تدّعي الوجودية.

خاتمة

وفي الأخير يمكننا القول؛ أنّ حاجة البشر لتفسير التاريخ وتتبع غاياته واستخراج علله واستشراف المستقبل، هي التي دفعت الباحثين لربط علم التاريخ مع مختلف العلوم الإنسانية، فكانت فلسفة التاريخ هي باكورة هذا الربط، وأصبح التاريخ لا يدرّس منفصلاً عن محيطه، بل تم ربطه بعلى وغايات، من أجل فهم جيد للحركية التاريخية، كما يجب التنويه أن مختلف التفسيرات التي قدمها الباحثون للتاريخ لا تنفك أن تندرج تحت إحدى هذه المدارس لأنها في النهاية تسعى لفهم أصحّ وأدقّ للدورة التاريخية البشرية.

وبناء على المعطيات السابقة يمكن القول أنّ الانسان في المرحلة الأولى في سعيه لتفسير حركية التاريخ، استدعى المقدس وربط كل حركية التاريخ به، وصار التاريخ هو تجلي لإرادة الله على الأرض، في حين أن المدرسة المادية والتي كانت إحدى افرازات الثورة الصناعية الأوروبية، قد ربطت التاريخ بحقل الصراع البشري في الأرض وأضحت الأحداث التاريخية هي حقل صراع للطبقات الاجتماعية، وذلك لتلبية رغباتها المادية من أجل العيش، أما المدرسة الوجودية فقد نقلت مركز الكون من الله إلى الانسان، وأصبح التاريخ هو كل ما يفعله الانسان في الكون بعيداً عن سلطة المقدس، وصار التاريخ يمثل سطوة الانسان، وقدرته على السيطرة وصنع الحدث.

قائمة المصادر والمراجع

- ^{/01} البوطي، محمد سعيد رمضان، نقض أوهام المادية الجدلية، دار الفكر، لبنان، ط2، 1979.

- 02/ بوليتزر، جورج، جي بيس وموريس كافين، أصول الفلسفة الماركسية، ترجمة، شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، لبنان، دط، دت، ج1.
- ⁰³ جعفر، محمد كمال إبراهيم، في الفلسفة الإسلامية، مطابع القبس التجارية، الكويت، ط1، 1986.
- 04/ جهامي، جيرار، موسوعة الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، دط، 1998.
- 05/ حسين، محسن محمد، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، مطبعة موكرياني أربيل، العراق، دط، 2012.
- 06/ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط2، 1996، م1.
- 07/ روثنال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة، صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، دط، 1963.
- 08/ زريق، قسطنطين، نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، دت.
- 09/ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن شمس الدين، الإعلام بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ترجمة، صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط1، 1986.
- 10/ سعيد، جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، دط، 2004.

- 11/ سلطان، محمد جاسم، الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ-أداة فلسفة التاريخ-، مؤسسة أم القرى، ط1، 2005.
- 12/ سيمون، بيير هنري، الفكر والتاريخ، ترجمة، عادل العوا، المكتبة الهاشمية، دمشق، دط، دت.
- 13/ شريعتي، علي، الإنسان والتاريخ، ترجمة، خليل علي، دار الأمير، لبنان، ط2، 2007.
- 14/ أبو شوك، إبراهيم، علم التاريخ وإشكالات المنهجية ومشروعات الأسلمة، مجلة أسلمة المعرفة، عدد 24/19.07.2008.
- 15/ الشيخ، رأفت، تفسير مسار التاريخ، دار روتانترنت للطباعة، مصر، دط، 2000.
- 16/ صائب، عبد الحميد، فلسفة التاريخ في الفكر الاسلامي-دراسة مقارنة بين المدارس الغربية الحديثة والمعاصرة-، دار الهادي، دط، دت.
- 17/ صبيح، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، لبنان، دط، 1994.
- 18/ الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، لبنان، ط3، 2009.
- 19/ صديقي، عبد الحميد، تفسير التاريخ، ترجمة، كاظم الجوادى، دار القلم، الكويت، ط1، 1980.
- 20/ صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني-مكتبة المدرسة، دط، 1982، ج2.
- 21/ الفيومي، محمد إبراهيم، الوجودية فلسفة الوهم الإنساني، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، دط، 1984.

- 22/ الكافيثي، عامر، حركة التاريخ في القرآن الكريم، دار الهادي، لبنان، ط1، 2003.
- 23/ العروي، عبد الله، العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة، لبنان، دط، 1973.
- 24/ مجموعة ناشرون، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، دط، 1983.
- 25/ محمد، علي عبد المعطي، أعلام الفلسفة الحديثة، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1997، ج.2.
- 26/ مدلول، محمد طالب، موقف القرآن الكريم من الفكر المادي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2007.
- 26/ ماكوري، جون، الوجودية، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، دط، 1982.
- 27/ الملاح، هاشم يحيى، المفصل في فلسفة التاريخ-دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية-، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2007.
- 28/ ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت.
- 29/ النشار، مصطفى، فلسفة التاريخ، شركة الأمل للطباعة والنشر، ط1، 2004.

- 30/ ويدجري، ألبان.ج.، التاريخ كيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى
توينبي، ترجمة، عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
مصر، دط، 1996، ج1.
- 31/ يزبك، قاسم، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر، لبنان،
ط1، 2012.